الفصـــل الثـــانى

الثقافة العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية

- اللغة السواحلية ٠
- انتشار الاسلام فى داخل القارة ٠
- المذاهب الاسلامية فى الساحل ٠
- الطرق الصوفية ٠
- تجارة الرقيق فى الساحل ٠

ارتبط ساحل شرق أفريقية طوال العصور الوسطى بنشاط العرب التجارى والهجرات العربية اليه ، فضلا عن هجرات أخرى قامت بها جماعات من الفرس من شيراز ، والهنود وغيرهم • ولا شك أن الهجرات العربية بظهور الاسلام فى القرن السابع الميلادى كانت أبرز الهجرات التى شهدها الساحل ، وأهمها تأثيرا فى تاريخه ، بحكم العامل الجغرافى الذى يتمثل فى قرب شبه الجزيرة العربية ، وخاصة سواحلها الممتدة من عمان الى عدن ، من سواحل شرق أفريقية • ونتيجة لذلك لعب العرب الدور الحاسم فى نشر الاسلام والثقافة العربية الاسلامية فى ساحل شرق أفريقية ، اذ نشأت بجهودهم مدن أو مراكز تجارية ، اعتزوا فيها بدينهم واحترامهم لأنفسهم ، فترك ذلك انطباعا طيبا فى نفوس الأفارقة ، جعل الكثير منهم يقبلون على الدين الاسلامى • ومن ناحية أخرى ، كان اختلاط العرب المسلمين الوافدين الى الساحل بالأفارقة ، وتزوجهم من بناتهم ، خطوة لما هو أبعد من ذلك ، اذ أدرك الأفارقة أن الدين الاسلامى يقوم على مبدأ الاخوة والمساواة ، ونظروا اليه على أنه دين السود والبيض جميعا •

ويهمنا الاشارة الى أن استقرار المهاجرين العرب على طول الساحل الشرقى الأفريقى ، وعدم توغلهم فى داخل القارة ، وارتباطهم عبر البحر بمواطنهم الأصلية فى شبه جزيرتهم ، كل ذلك حال دون ذوبانهم فى الأفارقة الأصليين • وعلى عكس ذلك بالنسبة للأفارقة ، فقد نتج عن اختلاط العرب بهم فترة طويلة ، تلطيف صفاتهم الزنجية ، وان كانت تلك الصفات مازالت واضحة فى أغلبيتهم (١) •

وثمة رأى لتوماس أرنولد (٢) حول انتشار الاسلام فى ساحل شرق أفريقية ، يتلخص فى أنه رغم وجود صلة دامت قرونا بين الأهالى الأفارقة وبين التجار العرب المسلمين فى البلاد الساحلية ، الا أن تأثر الأفارقة ـ فيما عدا الصومال ـ بالاسلام كان قليلا قلة ملحوظة • ويستطرد أرنولد بالقول انه حتى قبل الغزو البرتغالى لشرق أفريقية فى أوائل

---

(١) ابراهيم رزقانة : العائلة البشرية ، ص ٢٩٦ •
(٢) الدعوة الى الاسلام ، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١ •

القرن السادس عشر الميلادى ، يظهر أن ماتـم من حالات قليلة من تحول الأفارقة الى الاسلام كان مقصورا على الشريط الساحلى فقط • ولاشك أن المتأمل فى هذا الرأى ، ليبدو له لأول وهلة بسـاطته • اذ يجب أن نضع فى الاعتبار أن جيوش الفتح الاسلامى التى خرجت من شبه جزيرة العرب فى القرن السابع الميلادى فى الأقاليم المجاورة ، لم تصل الى ساحل شرق أفريقية ، فى حين أن الجهود التى بذلت لنشر الاسلام فى هذا الساحل جهودا فردية رائعة ، نهضت بها جماعات عربية اسلامية اشتغلت بالنشاط التجارى أساسا • أضف الى ذلك أن المد الاسـلامى الوافد الى ساحل شرق أفريقية فى ركاب الهجرات العربيـة القادمـة من جنوب الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى ، لم يتوقف على مر السنين ، وترتب على ذلك أن تأسست مدن اسلامية مزدهرة على الساحل ، صارت بيئة صالحة لانتشار الاسلام بين الأفارقة من ناحية ، وتغلب مظاهر الثقافة العربية الاسلامية عليهم من ناحيـة أخرى • ونلمس ذلك بوضـوح فى دولة الزنج التى ظهرت فى الساحل فى القرن العاشر الميـلادى ، وظلت باقية حتى أوائل القرن السادس عشر ، رغم القلاقل والانقسامات التى تنازعتها ، فقد شيدت تلك الدولة عدة مدن اسلامية ، وأقامت المساجد فى كل مدينة ، حيث عرف الكثير من القبائل الأفريقية الطريق اليها ، وفى هذا المظهر الدينى يتوفر الدليل القاطع على أن كثيرا من الأهالى الأفارقـة قد تحولوا الى الاسلام ، وليس كما زعم أرنولد أن قلة ملحوظة هى التى تأثرت به • والحق أنه من المبالغة القول ان الوثنية اختفت تماما من المدن الساحلية ، حيث مازالت تعتنقها عدة قبائل ، وان كنا لايمكن أن نقارنها بمراكز الوثنية فى مناطق الأدغال فى غرب ووسط وجنوب القارة الأفريقية ، ولكن هـذا لا يقلل من شأن الدور الذى قامت بـه دولة الزنـج فى الدعوة الى الاسلام • وقد كان بوسع تلك الدولة أو العرب المسلمين المقيمين على طول الساحل أن يصبغوا الأفارقة كلهم بطابع الاسـلام ، لو لم تقتحم أساطيل الغزو البرتغالى فى أوائل القرن السادس عشر مياه هذا الساحل ، الأمر الذى أعاق مسيرة المد الاسلامى والثقافة العربيـة الاسلامية قرابة قرنين ونصف ، وهى حقبة طويلة • ومما يجدر ذكره أن الحماس الدينى دفع دولة الزنج الى الجهاد فى سبيل الله ، بهـدف نشر

الدين الاسلامى ، ويؤكد ذلك الوصف الذى أورده ابن بطوطة (٣) عن أهل مدينة كلوة عاصمة تلك الدولة ، بقوله : « وهم أهل جهاد لأنهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح » . وفى مكان آخر يشيد ابن بطوطة (٤) بتمسك سلطان كلوة بأهداب الدين الاسلامى ، وخروجه للغزو فى سبيل الله ، قائلا : « وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها أبو المظفر حسن (١٣٠٨ ـ ١٣٣٤) ، وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج ، يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ، ويصرفه فى مصارفه المعنية فى كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوى القربى فى خزانة على حدة ، فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم ، وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة . وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف » .

هذا وجريا على عادة الباحثين الأوربيين الذين تناولوا تاريخ شرق أفريقية ،فى التقليل من شأن دور العرب فى هذهالمنطقة ، يرى تريمنجهام(٥) أنه بالامكان تقسيم تاريخ الثقافة الاسلامية فيها الى ثلاث فترات أساسية : الفترة الأولى وتتضمن الاستقرار المبكر للعرب والمسلمين فى الأماكن الساحلية ، حيث اعتنق بعض الزنج (الأفارقة) الاسلام ، والفترة الثانية ، ويمكن أن يطلق عليها الفترة الشيرازية ، وهى التى انتهت بتكوين مجموعات صغيرة على الساحل وفى جزر القمر ، حيث أقامت نمطا من الثقافة الاسلامية ، ثم حل الاستعمار البرتغالى ، فانقطع بسببه الطابع العادى للحياة فى المنطقة ، والفترة الثالثة ، وهى التى اعقبت انهيار الاستعمار البرتغالى ، اذ تزايد النفوذ السياسى لعمان ، ثم تأسست دولة زنجبار ، مما ادى الى اعادة تشكيل الحياة الشيرازية المنهارة ، فى الوقت الذى شرع المسلمون الآسيويون يلعبون دورا متزايدا كمستوطنين ، وبرغم ان دورهم فى حياة البلاد ، له اهمية اقتصادية

---

(٣) الرحلة ، حـ ١ ص ٢٠٠ .

(٤) الرحلة ، حـ ص ٢٠١ .

(٥) Trimingham, Islam in East Africa, pp. 1 — 2.

والترجمة العربية ، تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقيا ص ٣٤ .

تفوق الى حد بعيد أهميته الدينية ، فقد جلبوا معهم انقساماتهم الدينية • والواقع أن هذا التقسيم الذى يركز على تأثير الحياة الشيرازية الفارسية فى الساحل يحوى كثيرا من المبالغة • اذ الغرض منه – كما سبق أن ذكرنا – محاولة لهدم العلاقات العربية الافريقية فى العصور الوسطى ، وهى محاولة عمل المستعمر الأوربى الحديث على ترويجها ونشرها بين السكان الوطنيين ، بعد أن أطاح بالنفوذ العربى الاسلامى فى الساحل • صحيح أن الشيرازيين أسسوا مدينة كلوة – عاصمة دولة الزنج – فى منتصف القرن العاشر الميلادى ، وأدخلوا بها مظاهر الحضارة الفارسية ، ولا سيما المبانى الحجرية التى مازالت بعض مخلفاتها باقية الى اليوم ، ولكن ينبغى ألا يفوتنا أن الشيرازيين الأوائل كانوا قلة قليلة وسط محيط واسع من العرب المسلمين ، ولذلك لم ينته القرن العاشر الا وكان الساحل يغلب عليه الطابع العربى الاسلامى المتفوق آنذاك • وعلاوة على ذلك ، تشهد المعلومات التى كتبها الرحالة و المؤرخون والجغرافيون العرب عن هذا الساحل ، على مدى تعمق الثقافة العربية الاسلامية فى مدنه •

وعلى أية حال ، كان من نتيجة انتشار الثقافة العربية الاسلامية فى منطقة الساحل ، أن اهتم السكان – على اختلاف عناصرهم – بالعلوم الدينية واللغة العربية ، فمن كلوة سافر طلاب العلم الى شبه الجزيرة العربية لينهلوا من علوم المعرفة وبخاصة فى الدين والفقه ، وكان من بينهم الأمراء ، فقد تنقل لسلطان أبو المواهب (١٣٠٨ – ١٣٣٤) قبل ارتقائه عرش السلطنة فى كلوة ، بين عدن ومكة لطلب العلم ، وكان قد وصل الى مكة وهو لم يزل فى الرابعة عشرة من عمره (٦) • ومما يؤكد شدة حاجة سكان الساحل الى تحصيل العلوم العربية ، ماروّه أبو الحسن على بن أحمد بن عبد العزيز الميورقى (ت ٤٧٤ هـ) الذى زار البصرة فى سنة ٤٦٩ هـ (١٠٧٦) ، اذ ركب من عمان الى بلاد الزنج ، « وكان معه من العلوم أشياء ، فما نفق عندهم الا النحو ، وقال : لو أردت أن

---

(٦) محمد محمد أمين : المرجع السابق ، ص ٥٢ •

أكسب منهم ألوفا لأمكن ذلك ، وقد حصل لى منهم نحو ألف دينـــار ، وتأسفوا على خروجى من عندهم (٧) » ٠

ونتيجة لامتزاج الدماء العربية بالدماء المحلية الأفريقية ، وتأثير كل منهما فى الأخرى ، ظهر فى الساحل مجتمع جديد عرف بالمجتمع السواحيلى له مميزاته الثقافية وخصائصه الخاصة ، من أبرزها مظـاهر الالتقـــاء والمواءمة بين الاسلام والتقاليد المحلية التى لا تتعـــارض مع أصـــول الاسلام ٠

اللغـــة السواحيلية :

ونظرا لاختلاط سكان ساحل شرق أفريقية الأصليين بالعرب وغيرهم نشأت فى مناطق هذا الساحل لغة عرفت باللغة السواحيلية ، ولا ترجـــع تلك اللغة فى أصلها الى لغة قبيلة أفريقية بعينها ، ولكنها نمت كلغـــة للتجارة فى مراكز استيطان العرب وغيرهم ، بسبب اختلاط عدد من اللغات البانتوية بعضها بالبعض من ناحية ، وباللغة العربية من ناحية أخرى٠ وتتميز اللغة السواحيلية بأنها أسهل من لغـات البانتو من حيث التركيب وقد دخلتها عدة مفردات عربية انصهرت فيها ، وأصـاب بعض تلـــك المفردات يد التغيير ، حتى بعدت عن أصلها العربى ٠ وتعتبر تلك اللغة من وجهة النظر الفيلولوجية ، بأنها لغة بانتوية فى قواعدها ، ولكنها فقدت بعض الخصائص الصوتية ، لكى تتلاءم مع الألفاظ العربية التى دخلتها ، ويمكن القول أيضا أن اللغة السواحيلية مركب لغوى من أصل بانتوى أفريقى ، مطعم بألفاظ عربية (٨) أو أنها مثل الثقافة السواحيلية ليست نتاجا عربيا متأفرقا ، ولكنها كانت ولا تزال نتاجا أفريقيا مستعربا ، فأسسها وعناصرها تتصل اتصالا مباشرا بلغـــات البانتو الأفريقية ، وان كان قد لحقها تأثير عربى كبير نتيجـة قرون طويلـــة من التجارة والاستقرار (٩) ٠

---

(٧) ياقوت الحموى : معجم البلدان ، حـ ٥ ص ٢٤٧ ٠

(٨) Morgan, East Africa, p. 68;

(٩) محمد جلال عباس : اللغة السواحيلية ، مجلة نهضة أفريقيـــة ، ديسمبر ١٩٥٩ ، ص ١٧ ٠

باسيل دافيدسون : أفريقية تكتشف من جديد ، ص ٧٤ ٠

ويلاحظ أن اللغة السواحيلية بدأت فى التفوق على اللغة العربية وفرضت نفسها كوسيلة للتعبير وأداة للحديث بين الشعوب الملاصقة للساحل منذ حوالى القرن الثالث عشر ، ودون بها الأدب الشعبى فى حوالى القـــرن السادس عشر ، الى أن جاء القرن التاسع عشر ، فحلت محل العربية ، وقامت بمهمتها التاريخية فى التعبير عن الأفكار ونقلهـــا (١٠) • واذا كانت اللغة السواحيلية قد بدأت فى الانتشار بين سكان المناطق الساحلية والمدن الرئيسية ، خاصة فى زنجبار ومبسة ، فقد امتد نفوذها عـــلى أيدى التجار فى داخل القارة غربا حتى المناطق الشرقية من حوض الكونغو وفى جميع أرجاء نياسلاند ، وفى تنجانيقا حيث لا نجد قرية من قراهـــا لا يتكلم أهلها اللغة السواحيلية ، وفى فيكتوريا نيانـــزا ، وفى سفوح جبال كليمنجارو ، وكينيا (١١) • ولكن درجة انتشارها فى الواقع تقل بالتدريج ، كلما بعدنا عن موطنها الأصلى على الساحل • وهنا نشـــير الى أن الأوربيين عاونوا على نشر هذه اللغة التى كانت سهلة بالنسبة لهم ، اذ من السهل على الأوربى تعلمهـــا ، أسهل بكثير من اللغـــة العربيـــة ، لأن قواعدهـــا أبســـط نســـبيا (١٢) ، وتفى بمطالب الحيـــاة اليوميـــة •

وتعرف اللغة السواحيلية بأنها لغة لطيفـــة يطرب لها الســـامع ، فالحركات التى تنتهى بها كلماتهـــا ، والحركات التى عـــلى ما قبـــل أواخـــر الكلمات تجعلها قريبة الشبه فى النطق باللغـــة الايطاليـــة ، وقـــد جاءت تلك الحركات الحلقيـــة من اللغـــة العربيـــة ، وتلطفت بحيث يستطيع الأوربى أن ينطق بها بسهولة (١٣) ، ولتلك اللغـــة ثلاث لهجات معروفة هى (١٤) •

(١) **لهجة ممبسة وتعرف باسم «كمفيتا»** Kimvita وتنتشر فى المناطق الساحلية فى كينيا •

---

(١٠) Fage, The Hist. of Africa, p. 126.

(١١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام والعروبة فى أفريقية ، ص ٦٤ . محمد جلال عباس : نفس المرجع والصفحة •

(١٢) جون جنتر : داخل أفريقيا ، حـ٢ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ •

(١٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٦٣ •

(٢) لهجة زنجبار وتعرف باسم « كيونجوجا » Kiungoga ، وهى أوسع انتشارا من اللهجة السابقة ، اذ تشمل جميع مناطق الساحل فى تنجانيقا ومناطق شرق افريقية الداخلية ٠

(٣) لهجة الغرب وتعرف باسم « كنجوانا » .Kingwana وتنتشر فى منطقة حدود الكونغو الشرقية ، غير أن تلك اللهجة نظرا لبعد مناطقها عن الوطن الأصلى للغة السواحيلية ، حدثت فيها بعض المتغيرات التى أبعدتها عن خواص اللغة الأصلية ٠

وتجدر الاشارة الى أن اللغة السواحيلية فى شرق أفريقية من أقدم اللغات الأفريقية التى استخدمت الحروف العربية فى كتابتها ، ولا يزال بعض سكان المنطقة الساحلية يتمسكون باستخدام تلك الحروف فى كتاباتهم ٠ ويكتب المهاجرون العرب الى الساحل وجنوب القارة الأفريقية لهجاتهم الخاصة بالحروف العربية الموروثة (١٥) ، فى حين يكتب الصوماليون لهجاتهم بالحروف العربية ، ولكنهم يكتبون خطهم العربى من أعلى الى أسفل (١٦) ٠

ومن المعروف أن المبشرين بالمسيحية قد اعتمدوا على اللغة السواحيلية فى بث دعايتهم بين مختلف القبائل الأفريقية ، لأنها لغة أرقى ، يمكنها التعبير عن مفاهيم الحضارة الحديثة ونقلها ، فى الوقت الذى بذلوا قصارى جهودهم لاستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية للتعبير عن هذه اللغة ، وقد ساعدتهم فى ذلك السلطات الاستعمارية التى أطاحت بالنفوذ العربى فى مناطق شرق أفريقية ، ونظرا لاهمية اللغة السواحيلية ، فقد ألفت فيها الكتب ، وعملت لها المعاجم ، وترجمت اليها التوراة وغيرها من الكتب المسيحية، ونشرت بها عدة رسائل من الامثال الدارجة وحكايات وقصص وأشعار مختلفة٠(١٧)وفضلا عن ذلك، أصبحت تلك اللغة أداة

---

(١٤) محمد جلال عباس : المرجع السابق ، ص ١٧ ــ ١٨ ٠
(١٥) ابراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ، ص ٤٤ ــ ٤٥ ٠
(١٦) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب ، ص ٢٢٧ ٠
(١٧) محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية ، ص ١٠١ ٠
حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ١٦٤ ٠

لغوية سهلت المعاملات التجارية والمالية، أى لغة مشتركة أو سائدة Lingua Franca يتفاهم الجميع بها (١٨) ٠

ولما سيطر البرتغاليون على الساحل، كان من الطبيعى أن تأخذ اللغة السواحيلية من اللغة البرتغالية، ولكن تأثير الاخيرة كان ضئيلا، لايمكن مقارنته بما أحدثته اللغة العربية من أثر (١٩) ٠ ومما يدل على ذلك أن اللغة السواحيلية لاتزال تحتفظ بكلمة مسجد العربية لفظا ومعنى، فى حين أن الكلمة السواحيلية Gezeza المشتقة من الكلمة البرتغالية Igreja أى «كنيسة» لاتحمل معناها الحقيقى فى اللغة السواحيلية، وانما تعنى «سجن» والسبب فى ذلك أن البرتغاليين كانوا يبنون كنائسهم وسجونهم داخل القلاع التى شيدوها على طول الساحل (٢٠) ٠

ومهما يكن من أمر، فان الثقافة العربية الاسلامية أكسبت الساحل لغة قومية متولدة من اللغة العربية، قامت بدور هام فى مقوماته السياسية والحضارية ، وان كان هذا لا ينفى وجود اللغة العربية فى الساحل كلغة قائمة بذاتها ٠ ى

انتشار الاسلام فى داخل القارة

رأينا فيما سبق أن العرب المستقرين فى الساحل ظلوا طيلة العصور الوسطى يمارسون نشاطهم التجارى فى جزر ومدن الساحل، دون أن يتجهوا بأبصارهم الى داخل القارة والتوغل فيها ٠ ومن الاسباب التى دفعتهم الى ذلك أن الحياة على الساحل كانت أيسر وأوفر أمنالهم، كما أن طبيعة العرب المستقرين وتفكيرهم وشعورهم بانتمائهم العربى ، جعلهم يتطلعون دوما ـ عبر البحر ـ الى أوطانهم الاصلية فى شبه الجزيرة العربية، نظرا للروابط العائلية والتجارية التى تربطهم بها، هذا وقد حالت الموانع الطبيعية دون

---

(١٨) Fitzgerald, Africa, pp. 122 — 123.

(١٩) Morgan, op. cit., p. 168.

(٢٠) Knappert, Swahili Islamic Poetry, Vol. I, p.4.

نزوح العرب الى داخل القارة، لان الارض تأخذ فى الارتفاع بشدة (٢١) ٠ وان كان هذا لا ينفى أن العرب كانوا على دراية تامة بمسالك المناطق الداخلية وقبائلها وسلعها العديدة (٢٢) ٠ ذلك أن مدينة كلوة فى العصور الوسطى كانت تقع على احدى نهايات طرق القوافل القديمة التى يربط بينها وبين منطقة البحيرات العظمى، ومن المرجح الى أبعد من ذلك، ومع أن المؤرخين لم يقفوا على تفاصيل العلاقة بين الساحل والداخل حتى الآن، فقد أثبتت الحفريات الاثرية، أن شعوبا على قدر من التدين والمهارة فى استخدام الحجارة وممارسة الزراعة على سفوح الجبال وبناء المساكن وصناعة الحديد قد عاشت فيما يلى الشريط الساحلى من الصومال الى موزمبيق، هذه الشعوب على الارجح من «الزنج» الذين كانوا يجلبون سلعهم الى المناطق الساحلية (٢٣) ٠

وبرغم أن الكتاب الاوربيين أجمعوا على أن التجار العرب لم يتوغلوا فى داخل القارة فى القرن التاسع عشر، وأن تأثيرهم فى نشر الاسلام كان ضئيلا، بحجة أن النشاط التجارى كان مستوليا أساسا على تفكيرهم وأسلوب حياتهم، فان هذا لاينفى الحقيقة التى تؤكد وصول الاسلام الى قلب أفريقية قبل القرن التاسع عشر بكثير ٠ اذ كان من نتائج الغزو البرتغالى للساحل فى أواخر العصور الوسطى ، أن ترك المسلمون مناطق الساحل أمام تزايد هجمات المعتدين، ولجأوا الى الداخل حيث اختلطوا بالقبائل الداخلية ونشروا الاسلام بينها (٢٤) ٠

المذاهب الاسلاميـــة فى الساحل

رأينا أن ساحل شرق أفريقية فى العصور الوسطى ارتبط بروابط متينة بالعالم الاسلامى والعربى، لاسيما بعمان الواقعة فى الجنوب الشرقى من شبه جزيرة العرب ٠ وكان من شأن تلك الروابط أن تطبع مدن الساحل بمعالم تعكس الصورة المذهبية التى كان عليها المسلمون آنذاك ٠ وهذا يعنى أن تلك المدن

---

(٢١) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : زنجبار ، ص ١٥ ٠
(٢٢) أحمد نجم الدين : أفريقيا جنوبى الصحراء ، ص ١٤٥ ٠
(٢٣) باسيل دافيدسون : المرجع السابق، ص ٩٠ ٠
(٢٤) محمد محمد أمين : المرجع السابق، ص ٥٢ ٠

صارت مراكز التقاء لمعظم المذاهب والفرق التى عرفها التاريخ الاسلامى، مثل الاباضية والزيدية والاسماعيلية وغيرها (٢٥) · وقد جاءت الاباضية الى الساحل مع العمانيين، خاصة بعد أن نقل السيد سعيد مقر نفوذه الى زنجبار فى سنة ١٧٤٩م، وسيطر على معظم مدن الساحل · غير أن المذهب الاباضى فى الواقع بقى مذهب الاسرة الحاكمة، ولم يكتب له الانتشار بين الافارقة أنفسهم (٢٦) · ومن المعروف أن أهل عمان كانوا على المذهب الاباضى، نسبة الى عبد الله بن اباض التميمى، أشهر فرق الخوارج التى ظهرت فى النصف الاول من القرن الاول للهجرة · ولما قامت الدولة العباسية ثار الخوارج عليها، اذ نظروا الى العباسيين نظرتهم لخلفاء بنى أمية، كلهم لايصلح للخلافة، وحاربوهم فى قوة وصلابة · ولم يكد السفاح يستتر فى خلافته حتى تحرك خوارج عمان، وعلى رأسهم الجلندى، وكان هو وأتباعه من الخوارج الاباضية، فأرسل السفاح اليهم جيشا بقيادة خازم بن خزيمة، سار فى البحر حتى نزل على ساحل عمان، ثم حدثت الحرب بينه وبين الجلندى، كانت الحرب فيه سجالا، ولم يلبث بعض أتباع خازم أن أشاروا اليه أن يأمر جنوده فيجعلوا على أطراف أسنتهم المشاقة ويرووها بالنفط، ويشعلوا فيها النيران، ثم يرموها فى بيوت أصحاب الجلندى، وكانت من خشب، فلما أضرمت بيوتهم بالنيران اشتغلوا بها وبمن فيها من ذويهم، فأعمل فيهم خازم وأتباعه القتل، ولقى الجلندى مصرعه، وبلغ عدد القتلى نحو عشرة آلاف، وكان ذلك سنة ١٣٤ هـ (٧٥١م) (٢٧)· ومن المرجح أن كثيرا من اباضية عمان قد فروا عقب تلك المعركة الى ساحل شرق أفريقية طلبا للنجاة ، بعيدا عن سطوة العباسية · ومما يذكر أن الاباضية أبدت تسامحا كبيرا فى شرق أفريقية مع المذاهب المخالفة لها فى الساحل، وفى هذا الصدد يؤكد الاستاذ بيرتون أنه فى عهد السيد

---

(٢٥) Trimingham, The Influence of Islam, p. 58, 79.

(٢٦) Ibid., p. 31.

(٢٧) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، حـ٧ ص ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣·
ابن الاثير : الكامل، حـ٥، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢،
أحمد أمين : ضحى الاسلام، حـ٣ ص ٣٢٧ ـ ٣٤٠،
السالمى : تحفة الاعيان، حـ١ ص ٧٢ ـ ٧٤ ·

سعيد سلطان زنجبار (١٨٠٦ ـ ١٨٥٦) سمح للاثنى عشرية أن ينتحبوا على شهدائهم (٢٨) ٠

أما الزيدية فقد سبق الاشارة الى أن جماعة منهم نزحت الى الساحل فرارا من الامويين ٠ والزيدية فرقة كبيرة من فرق الشيعة المعتدلة، تتبع زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى خرج على الامويين فى العراق سنة ١٢١هـ (٧٣٨م) فى عهد هشام بن عبد الملك، ولكنه قتل فى العام التالى ٠ والزيدية فى تعاليمهم أقرب الى السنة، فلا يقولون بالتقية، ولايقولون بعصمة بعض الائمة، ولايقولون باختفائهم، وهم يرون أن خلافة أبى بكر وعمر صحيحة ، وأن كان على أفضل منهما ، لان امامة المفضول جائزة مع وجود الافضل (٢٩) ٠ ولم يكتب لهذا المذاهب البقاء فى الساحل، شأنه فى ذلك شأن جميع المذاهب التى شهدتها مدن الساحل ، فيما عدا المذهب السنى ، وهو الغالب اليوم على مسلمى الساحل ٠

ويعتبر المذهب الشافعى أشهر مذاهب السنة انتشارا فى الساحل ، بسبب أن الاسلام الذى دخل مناطق الساحل قدم عليها من جنوب الجزيرة العربية ومنطقة الخليج العربى، ونستطيع القول أن الساحل صار من أتباع المذهب الشافعى فى الفترة الواقعة بين سنة ٨١٣ و ٩٧٥م، ومن المرجح أن جماعة الاحساء أو قبيلة الحارث السنية هى التى جلبت المذهب السنى الى الساحل باعتبارها سنية المذهب ، ومما يؤكد انتشار هذا المذهب فى الساحل ما ذكره ابن بطوطة من أن أهالى مقديشيو وممبسة وكلوة كانوا على المذهب الشافعى فى القرن الثالث عشر الميلادى (٣٠) ٠

ولكن المذهبية فى ساحل شرق أفريقية تظهر واضحة فى مجتمع الهنود المسلمين، ذلك أنهم ـ كما أشرنا من قبل ـ عاشوا فى مجتمع مغلق عليهم، وفى عزلة عن المجتمع العربى، ولم يختلطوا بالافارقة مثلما فعل العرب ٠ ويلاحظ

Trimingham, Islam in East Africa, p. 81.

والترجمة العربية، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ٠

(٢٩) ابن شاكر : فوات الوفيات ، حـ٢ ص ٣٥ ـ ٣٨ ، أحمد أمين : المرجع السابق، حـ٣ ص ٢٧١ ـ ٢٧٧ ٠

(٣٠) Ingrams, Zanzibar, p. 77.

أن هنود الساحل المسلمين ينتسبون الى فرقة الاسماعيلية (٣١) التى لعبت دورا عاما فى تاريخ العالم الاسلامى منذ ظهورها • وكان لضعف الدولة العباسية فى القرن العاشر الميلادى أثر كبير فى انتشار المذهب الاسماعيلى، بفضل دعاته الذين كانوا منبثين فى كل مكان، فوصل نفوذه الى بلاده الشام والعرب واليمن وشمال أفريقية ، فى الوقت الذى كان للاسماعيلية أتباع عديدون فى بلاد فارس والهند • ثم حدث انقسام فى صفوف الاسماعيلية ابان الاحداث التى شهدتها الدولة الفاطمية أيام الوزير الافضل بن بدر الجمالى، الذى انتهز فرصة وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر بالله فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤)، واعلن امامة المستعلى صاحب الحق فى الامامة وحبسه الى أن توفى، الامر الذى ترتب عليه أن عددا كبيرا من أتباع المذهب الاسماعيلى أبى أن يبايع المستعلى، ولم يعترف بامامته، ونادىبامامة نزار وأبنائه من بعده، ومن ثم انقسمت الفرقة الاسماعيلية الى فرقتين : فرقة الاسماعيلية النزارية أو الاسماعيلية الشرقية، وفرقة الاسماعيلية المستعلية أو الاسماعيلية الغربية (٣٢) •

على أن أمر الاسماعيلية المستعلية فى اليمن صار له شأن آخر فى عهد الصليحيين الذين كان لهم رأيا فى الامامة بعد اغتيال الخليفة الفاطمى الآمر سنة ٥٢٤هـ (١١٣٠م)، اذ رفضوا الاعتراف بالحافظ لعدم أحقيته فى الامامة، وزعموا أن احدى زوجات الامام الآمر كانت حاملا ، ثم أنهـا وضعت طفلا ذكرا اسمه الطيب، اتخذوه اماما، وسميت هذه الفرقة المستعلية الجديدة باسم «الاسماعيلية الطيبية» • ووجه الاهمية هنا أن النشاط التجارى بين اليمن والهند هيأ الفرصة لنشر الدعوة الاسماعيلية الطيبية فى الهند، ولاسيما فى

---

(٣١) المذهب الاسماعيلى نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق، وقد عرف أنصاره بالاسماعيلية، وهم فرقة من الشيعة ترى أن الامامة انتقلت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الى على بن أبى طالب، ثم الى ابنه الحسن، ثم الى أخيه الحسين، ثم فى بنى الحسين الى جعفر الصادق، ويروى أن الامامة انتقلت من جعفر الصادق الى ابنه اسماعيل، ثم تنقلت فى بنيه • أنظر : القلقشندى : صبح الاعشى ، حـ١ ص ١١٩ ــ ١٢٠ •

(٣٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، حـ ٥ ص ١٤٢ ــ ١٤٣ ، محمد كامل حسين : طائفة الاسماعيلية ، ص ٤١ ــ ٤٢ •

كوتشى وجوجرات جنوب بومباى، حيث لاقت الدعوة نجاحا كبيرا، وعرف أتباعها بالاسماعيلية البهرة أو البهرة (٣٣) · ويقال أن اصطلاح البهرة مشتق من الكلمة الجوجاراتية فوهورو Vohoru بمعنى التجارة، وان كان هذا الاصطلاح لايقتصر على المسلمين فحسب، بل يستخدمه الهندوس أيضا كدلالة طبقية (٣٤) ·

أما الاسماعيلية النزارية،وهم الفرقة الثانية من الاسماعيلية التى ترى أحقية نزار امامة الاسماعيلية ، فقد كان لها شأن خطير فى فارس والشام والهند · وقد نشر الحسن الصباح (ت ١١٢٤م) صاحب قلعة آلموت فى فارس الدعوة النزارية فى فارس وخراسان، وصار لها نفوذا قويا ظل قائما الى أن ظهرت جيوش المغول فى آسيا، واجتاحت أقاليم العالم الاسلامى ومدنه خلال زحفها· وكانت قلاع الاسماعيلية مما اجتاحتها جيوش المغول، ففى سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) دخل هولاكو قلعة آلموت، كما استولى على جميع قلاع وحصون الاسماعيلية، مما أدى الى هجرة العديد من الاسماعيلية، فرارا من أهوال المذابح التى حلت بهم، فتمت هجرتهم الى بادخشان (أعالى نهر جيحون) والى الهند على وجه الخصوص، على حين هاجر البعض منهم الى ساحل أفريقية الشرقى والجنوبى (٣٥) ·

الطـرق الصوفيـة :

من الملاحظ أن جهود الطرق الصوفية فى الدعوة الى الاسلام فى ساحل شرق أفريقية وصلت متأخرة، بعد انتشارها فى شبه الجزيرة العربية أولا، الامر الذى يؤكد لنا أن الروابط المتينة بين العرب المقيمين فى الساحل واخوتهم فى شبه الجزيرة العربية ظلت حية على مر الزمن · ويرى الدكتور حسن محمود (٣٦) أن الطرق الصوفية لم تتسرب الى شرق أفريقية قبل القرن الرابع عشر

---

(٣٣) محمد كامل حسين : المرجع السابق، ص ٥١ ـ ٥٢ ·

(٣٤) Hollingsworth, The Asians of East Africa, p. 146.

(٣٥) محمد كامل حسين : المرجع السابق، ص ٨٧ ـ ٩٠،
Hollingsworth, op. cit., pp. 136 — 137.

(٣٦) الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية، ص ٤٢٨

الميلادى، ذلك أن «العمرى» صاحب كتاب «مسالك الابصار» الذى كتب عن هذه المنطقة، لاحظ أنه ليست بها ربط ولا زوايا ولا خانقاوات • وتعتبر الطريقة القادرية أو الجيلانية أقدم الطرق الصوفية التى انتشرت فى شرق أفريقية بفضل المهاجرين اليمنيين أو الحضارمة ، وكان أهم مراكزها مصوع وزيلع ومقديشيو • وتنتسب تلك الطريقة الى مؤسسها الشيخ عبد القادر الجيلانى (١٠٧٧ ـ ١١٦٦م)، الذى كان عالما بالاصول والفروع والحديث رواية ودراية، جلس للوعظ أربعين سنة، ومفتيا من سنة ٥٣٦هـ (١١٤١م)، الى أن مات بالعراق (٣٧) • وعلى الرغم من أن الطريقة القادرية أقوى الطرق الصوفية تأثيرا فى شرق أفريقية بوجه عام، فالامر يختلف من مدينة الى أخرى على الساحل، ففى كلوة مثلا نجد الطريقة الشاذلية هى الغالبة، بينما الطريقة القادرية هى السائدة فى مالندى، وفى زنجبار نجد جميع الطرق الصوفية المنتشرة فى شرق أفريقية (٣٨) • ويروى أتباع الطريقة القادرية فى الساحل أنها قدمت أصلا من بروة على الساحل الصومالى على أيدى السيد عمر القللينى المدفون فى ويليزو على بعد أربعة أميال من زنجبار، وفى ذكراه التى يجرى لها احتفالات كبيرة، يرتل المريدون آيات متعددة من القرآن الكريم، ويقضون الليل بطوله فى الذكر، ولهذه الطريقة فروع عديدة فى مناطق متعددة مثل أوجيجى وتابورة وغيرها (٣٩) • وتتميز هذه الطريقة بأنها أكثر الطرق ثقافة وتمدنا فى الساحل، وأفرادها لا يميلون الى احتراف الزراعة أو الصناعة وانما يقومون بمهنة التعليم (٤٠) •

ومن الطرق التى انتشرت فى زنجبار وبعض المناطق الساحلية فى العصور الوسطى الطريقة الرفاعية، وهى الطريقة الوحيدة التى تسمح بالطبول واستعمالها، كما ينشد مريدوها قصائد كثيرة باللغة السواحيلية أكثر من أية

---

(٣٧) محمد أبو زهرة : الدعوة الى الاسلام ، ص ١١٧ ـ ١١٨ •

(٣٨) Trimingham, op. cit., pp. 97 — 98;
والترجمة العربية، ص ١٧٢، ص ١٧٧ ـ ١٧٨

(٣٩) Trimingham, op. cit., pp. 99 — 100;
والترجمة العربية، ص ١٨١

(٤٠) عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب، ص٢٤٥ ـ ٢٤٦

طريقة أخرى، ويمارس أتباعها بعض الاعمال الخاصة بطريقتهم، فيغرسون آلات حادة فى أجسامهم ، ويبتلعون النار ، ويروضون الثعابين(٤١)·ومن الطرق الصوفية التى وجدت طريقها الى زنجبار، الطريقة العلوية التى أسسها محمد ابن على بن محمد (ت١٢٥٥م) ، ولها شعبتان هما العيدروسية التى أنشأها الشريف أبو بكر بن عبد الله العيدروس المتوفى فى عدن سنة ١٥٠٩، والحدادية التى أنشأها عبد الله بن علوى بن أحمد الحداد (ت ١٧٢٠م) (٤٢) ·

وعلى أية حال، وفدت طرق صوفية عديدة الى الساحل فى العصور الوسطى، ساهم شيوخها فى الدعوة الى الاسلام بين الافارقة، ويرجع الى أولئك الشيوخ الفضل فى الحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن الكريم، واقامة المساجد، فى وقت كان مسلمو الساحل أشد حاجة لمن يشد بأزرهم، خاصة بعد الاضطهاد الذى لقوه على أيدى البرتغاليين فى أواخر العصور الوسطى ·

تجارة الرقيق فى الساحل :

نادى الاسلام بمحاربة النخاسة تمشيا مع تعاليمه السامية، وعمل على الغائها تدريجيا، اذ لم يكن من السهل تحريمها دفعة واحدة، لما يترتب على ذلك من هدم لكيان المجتمع فى أنشطته الاقتصادية المتوارثة، فى الوقت الذى حبب الاسلام عتق الرقاب ابتغاء مرضاة الله، قال تعالى : «ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجـــدين · فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك العقبة ، فك رقبة، أو اطعام فى يوم ذى مسغبة، يتيما ذا مقربة، أو مسكينا ذا متربة (٤٣) » · كما عنى الاسلام بالرقيق عناية كبيرة، وحذر من اساءة معاملتهم وتحقيرهم، قال تعالى : «واعبدوا الله لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » · (٤٤) ·

---

(٤١) Trimingham, Islam in East Africa, p. 101.

(٤٢) Ibid., p. 102.
والترجمة العربية، ص ١٨٣ ـ ١٨٦

(٤٣) سورة البلد ٩٠ : ٨ ـ ١٦

(٤٤) سورة النساء ٤ : ٣٦

تلك هى تعاليم السلام الواجبة التى سار المسلمون والتجار العرب على هداها تجاه الرق، ولكن الاوربيين درجوا فى دعايتهم على أن التجار العرب العرب كانوا حجر الزاوية فى تجارة الرقيق العالمية، وحاول كتابهم القاء مسئوليتها عليهم ، زاعمين أنهم كانوا أقدم من مارسها فى ساحل شرق أفريقية، فى حين أن دور الاوربيين لم يبدأ الا فى غرب أفريقية منذ بداية القرن السادس عشر الميلادى • ومن الطبيعى أن تلك المقارنة خاطئة الى أبعد حد ، فالاوربيون- كما سنرى - هم وحدهم الذين أعطوا تجارة الرقيق قوتها الدافعة الكبرى فى تاريخ الانسانية، حتى وصل الامر الى تناقص عدد سكان القارة الافريقية، وصارت أقل القارات سكانا بالنسبة لمساحتها •

واذا ألقينا نظرة على الطريقة التى كان يجلب بها الرقيق من الساحل، نلاحظ أنها اقتصرت على ما كانت تقدمه المدن المغلوبة عوضا عن الجزية المفروضة عليها، أو بطريق الشراء، ويؤكد ذلك مارواه ابن الوردى (٤٥) من أن الزنج أنفسهم كانوا يقصدون ميناء سفالة، ليبيعوا أولادهم وزوجاتهم لتجار عمان مقابل التمر والخرز والملح • وعلى هذا النحو، وقف دور التجار العرب عند حد التبادل التجارى ، فلم يشتركوا فى الاغارة على السكان الآمنيين فى القرى والغابات ، وهى عملية كان ينفذها رجال متخصصون مهمتهم صيد العبيد، ثم تسليمهم الى الرؤساء المحليين أو الى وكلاء التجار (٤٦) • أما فى الجانب الغربى من القارة، فقد أعطانا السير أرنولد هدسون صورة مغايرة لما كان عليه الحال فى جانبها الغربى • ذلك أن المغيرين من صيادى العبيد كانوا يحكمون الالتفات حول قرية معينة فى الليل الدامس، دون أن ينتبه سكانها الآمنون لما تخبئه لهم الاقدار • ولايلبث أولئك المغيرون أن ينفخوا فى الابواق فجأة، ويطلقون صرخات وحشية لحمل الاهالى على الخروج من أكواخهم المشيدة من الاغصان،فى الوقت الذى يضرمون النار فى تلك الاكواخ.فيضطر الاهالى الى الفرار مذعورين من الاصوات وألسنة اللهب • وعندئذ يقوم

---

(٤٥) خريدة العجائب ، ص ٤٩ - ٥٠ •

(٤٦) تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، ترجمة محمد عاطف النواوى ، ص ٦٠ •

المغيرون برمى الطاعنين فى السن من الرجال والنساء بالحراب، وإطلاق رصاص البنادق عليهم، أما الاطفال والفتيان والفتيات الذين يجرون دون وعى منهم هنا وهناك من هول المفاجأة، فهم الصيد الثمين الذى يحرص المغيرون على اقتناصه بطريق الاسر (٤٧) ، ومن ثم تبدأ رحلة العودة الشاقة الى أوربا ٠

وكيفما كان الامر، فمنذ اللحظة الاولى التى يصير فيها الرقيق المجلوب الى الساحل فى حوزة التجار العرب، كان يجرى تصديره من موانى كلوة وزنجبار وغيرها، فيما عدا المنطقة الواقعة حول رأس جاردافوى وشماله، التى يسكنها الصوماليين، باعتبارهم أحرار لم يقع عليهم الاسترقاق ٠ وفى خلال الرحلة البحرية الطويلة، كان الرقيق يلقى الرعاية، وينعم بالمعاملة الطيبة التى نادت بها تعاليم الاسلام، وليس ثمة دليل يوضح ذلك أبلغ مما كتبه المقيم البريطانى فى الخليج العربى سنة ١٨٤٤م حول تجارة الرقيق، بقوله : «ان معاملة الارقاء الافارقة فى أى وقت من الاوقات، كانت بعيدة تماما عن الشدة والقسوة، فهم لايكبلون بالاصفاد خلال الرحلة البحرية الطويلة، ولاتفرض عليهم رقابة، ويقدم لهم الطعام بكميات وافرة، تشمل الارز والتمر والسمك، كما يرتدون قماشا خشنا يلفونه على وسط أجسادهم، ويكفى أن نشير الى أنه منذ اللحظة التى يتم فيها شراؤهم يتحسن وضعهم (٤٨) »٠وفى نهاية المطاف يجد الرقيق نفسه ، بعد اتمام اجراءات بيعه الأخيرة فى مسقط أو صور ، كغواص على اللؤلؤ فى مياه عمان الخضراء ، وفى منازل السادة العرب ، وكخادم لتاجر فارسى ، على حين يسلك بعض الأرقاء طريقهم الى البصرة ليجرى بيعهم هناك (٤٩) ٠ وكان الأرقاء يعرضون للبيع أيضا فى أسواق الرقيق فى بغداد وغيرها من المدن الكبرى ، الى جانب السبايا البيض ، ليكونوا تشيكلة بديعة فى قصور الخلفاء والولاة والمترفين الأثرياء ٠ وهنا نلاحظ أن الاقبال على تجارة الرقيق لم يقف عند حد الطبقات العليا من المجتمع الاسلامى

---

(٤٧) Macmun, Slavery through the Ages, pp. 153 — 154

(٤٨) Wilson, Persian Gulf, pp. 226 — 227

(٤٩) Wilson, op. cit., pp. 215 — 216, Bohannan & Curtin, Africa & Africans, p. 268.

بل غدت من مقتضيات الطبقتين الوسطى والدنيا ، نتيجة لرواج الحركة الملاحية الواسعة التى سهلت تلك التجارة وجعلتها فى متناول الجميع ، خاصة فى عصر الدولة العباسية الثـانى (٥٠) (٨٤٧ ـ ١٠٥٥ م) ٠ هـذا وليس كل من وقعوافى أصفاد العبودية كانوا عبيدا ، بل ان عددا كبيرا منهم صاورا جنودا ، ذلك أنه لمـا ثار أهالى الموصل على الخلافة العباسية ابان السنوات الأولى من قيامها ، أرسل أبو العباس السفاح أخاه لرد تلك الثورة ، وكان فى جنده أربعة آلاف زنجى من زنجبار (٥١) ٠ كذلك كان بين جند الخليفـة العباسى هارون الرشيد أربعمائة جندى من أهالى شرق أفريقية (٥٢) ٠ وكان الجيش الديلمى (البويهى) الذى كان تحت امرة نايب عمر بن بنهـان الطائى فى عمان ، يتألف من نسبة كبيرة من الزنوج تصل الى بضعة آلاف ، على غرار جيوش الخلافة العباسية فى القرن العاشر الميلادى ، وهؤلاء الزنوج كانوا يجلبون من ساحل شرق أفريقية (٥٣) ٠

على أن القسم الأكبر من زنوج شرق أفريقية الذين اتصفوا بقوة البنية وتحمل الأعمال الشاقة ، عملوا على شكل جماعات فى منطقة البصرة فى أراضى كبار الملاك ، ووقع عليهم عبء تجفيف المستنقعات فى المنطقة المحصورة بين النهر ، وازالة الطبقة الملحية والوصول الى التربة الخالية من الأملاح ، التى تصير بعد ازاحة هذه الطبقة عنها صالحة للزراعة ، وقد كان كسح الملح عملاشاقا لا يستطيع القيام به الا الزنج ، الذين وقع عليهم عبء نقله بواسطة البغال الى حيث يعرض ويباع ، ويدر ربحا (٥٤) ٠ وعلاوة على ذلك ، كان الزنج يعملون فى استخراج الدبس من التمر فى منطقة البصرة المعروفة بنخيلهـا وتمورها ٠ وكان من نتائج الأعمال الشاقة التى مارسها الزنج فى البصرة أن صارت أحوالهم المعيشية بالغة السوء ، فطعامهم لم يكن ليشبع ، كما أنهم كانوا عرضة للامراض الفتاكة ، اذ عاشوا فى منطقة مليئة بالمستنقعات والبرك

---

(٥٠) قدرى قلعجى : الخليج العربى ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ ٠

(٥١) ابن الاثير : الكامل، حـ٥، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤

(٥٢) تريمنجهام : الاسلام فى شرق أفريقية ، مقدمة العرب ، ص ٢٧ ـ ٢٨

(٥٣) Miles, Country and Tribes of the Persian Gulf, p. 116.

(٥٤) أحمد علبى : ثورة الزنج، ص ٧٨ ـ ٨٠، قدرى قلعجى : الخليج العربى، ص ٢٦٩ ـ ٢٧٠، عبده بدوى : السود والحضارة العربية، ص ٢٠٥

والأنهار ، وهذا يعنى أن الرطوبة وشدة الحرارة والأوبئة والقذارة كانت مرتعا خصيبا لهم ، والى جانب تلك العوامل المادية المرهقة ، كانت هناك عوامل نفسية شديدة الوطأة على الزنج (٥٥) · فقد كانوا منبوذين من المجتمع ، ومنكبين على أحزانهم ، لا يتزوجون من خارج دائرتهم السوداء ، وبعضهم كان يمنع من الزواج ، فى الوقت الذى كان عامتهم لا يفهمون اللغة العربية ، وانقطعت صلتهم بالأماكن التى جلبوا منها وبخاصة شرق أفريقية (٥٦) · وما لبثت الأوضاع السيئة التى عاشها الزنج أن أدت بهم الى التمرد والعصيان ضد الدولة العباسية ، وقاموا بثورتهم المعروفة بحركة الزنج ، تزعمها على ابن محمد فى البصرة سنة ٢٥٥هـ (٨٦٨م) ، ودامت أكثر من أربع عشرة سنة ، ذلك أنه انتهز فرصة ضعف تلك الدولة ، وادعى أنه من ذرية على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب ، ووعد الزنج بتخليصهم مما هم فيه ، فلبوا دعوته ، وجند منهم جيشا حارب به العباسيين ، ولكنه قضى على ثورته فى سنة ٢٧٠ هـ (٨٨٣ م) ، وما ت عدد كبير من الزنج (٥٧) · ويرى البعض أن لثورة الزنج قيمة خاصة فى التاريخ الاسلامى ، ذلك أنها تلقى ضوءا قويا وعميقا على طبيعة العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل والفكرية فى العصر العباسى الثانى ، حيث كان المجتمع العباسى قد غدا مجتمعا مريضا (٥٨) · وهنا نلاحظ أن تلك الثورة كانت محلية ، لم تتعد بلاد العراق ، وان كانت فى الحقيقة أحد الأسباب الرئيسية لاضمحلال الدولة العباسية وتفككها · فقد ترتب على تلك الثورة أن تعطلت الزراعة وأرهق الناس ارهاقا شديدا بتقديم المؤن لكل من الفريقين المتصارعين ، مما أدى الى هجرة بعضهم تماما من المنطقة من ناحية ، وتعطيل الملاحة النهرية فى الداخل ، والملاحة الخارجية مع الهند وسيلان وسومطرة والصين وأفريقية من ناحية أخرى (٥٩) ·

---

(٥٥) أحمد علبى : المرجع السابق ، ص ٨٠ ـ ٨٢ ·
(٥٦) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ·
(٥٦) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٥ ·
(٥٧) الطبرى : نفس المصدر ، حـ ٩ ، ص ٦٥٤ ـ ٦٦١ ، ابن الأثير : الكامل ، حـ٧ ص ٤٠٥ ·
ابن كثير : البداية والنهاية ، حـ١١ ص ١٨ ـ ١٩ ، ص ٣٠ ـ ٣١ ·
(٥٨) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٠٢ ·
(٥٩) عبده بدوى : المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ·

ومن الحركات التى قام بها الزنج فى الدولة العباسية ولا نعلم سببا لها تلك التى أضرموا نارها فى عمان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) ، ويروى ابن الأثير (٦٠) أحداث تلك الحركة قائلا : « لما توفى معز الدولة وبعمان أبو الفرج بن العباس نائب معز الدولة فارقها ، فتولى أمرها عمر بن نبهان الطائى ، وأقام الدعوة لعضد الدولة ، ثم الزنج غلبت على البلد ومعهم طوائف من الجند وقتلوا ابن نبهان ، وأمروا عليهم انسانا يعرف بابن حلاج ، فسير عضد الدولة جيشا من كرمان ، واستعمل عليهم أبا حرب طغان ، فساروا فى البحر الى عمان ، فخرج أبو حرب من المراكب الى البر ، وسارت المراكب فى البحر من ذلك المكان ، فتوافدوا على صحار قصبة عمان ، فخرج اليهم الجند والزنج ، واقتتلوا قتالا شديدا فى البر والبحر ، فظفر أبو حرب واستولى على صحار وانهزم أهلها ، وكان ذلك سنة اثنتين وستين . ثم ان الزنج اجتمعوا الى بريم ، وهورستاق بينه وبين صحار مرحلتان ، فسار اليهم أبو حرب ، فأوقع بهم وقعة أتت عليهم قتلا وأسرا ، فاطمأنت البلاد » .

على أن تلك الحركات لم تقلل من شأن المعاملة الانسانية التى لقيها الرقيق فى أنحاء من العالم الاسلامى ، ففى هذا العالم لم يسترق الرقيق طوال حياته ، فاذا بلغ سنا معينة أعتق وصار يعيش كما يعيش أى فرد حر . وفى ظل الشريعة الاسلامية عاش الرقيق لا فرق بينه وبين مولاه فى الطعام والشراب والتعليم والتهذيب ، وجرت المحافظة عليه وعلى أولاده . وفى هذا الصدد أشار الأستاذ ويلسون الى العناية التى يلقاها الرقيق فى العالم الاسلامى ، فحياته فى شبه جزيرة العرب رغم أنها كانت قاسية ، الا أنها على وجه التأكيد لم تكن أقسى من حياة العربى العادى ، كما كانت أقل مشقة من حياة الأفريقى بين قبيلته فى موطنه الأصلى . وأضاف بقوله ان الأرقاء فى العادة كانوا يبلغون مكانة رفيعة من الثقة فى قلوب سادتهم العرب ، وكانت الفرصة مهيئة أمامهم لاعتاقهم طبقا لأحكام الشريعة الاسلامية ، ففى

---

(٦٠) الكامل فى التاريخ ، حـ ٨ ص ٦٤٦ .

كل عام كان كثير منهم يحصلون على حريتهم ابتغاء مرضاة الله ، ويعيشون فى نعمة المساواة والاخاء ، وبسبب قوة بنيتهم وشجاعتهم وأمانتهم ضمنوا احترام جيرانهم من جهة ، وفرص التقدم فى المجتمع من جهة أخرى (٦١) ٠

والحقيقة أن تجارة الرقيق شهدت نشاطا واسع النطاق منذ أن وطئت أقدام الأوربيين أرض القارة الأفريقية ٠ فقد كان قدوم البرتغاليين الى مناطق القارة فرصة ثمينة للحصول على ثرواتها ، ولم يكن لقدومهم وغزواتهم من نتيجة سوى أنهم حطموا فى فترة وجيزة ما نسجته عشرات القرون من الصلات التجارية القائمة ، وعندما حطموا مدن الساحل الأفريقى المزدهرة فى بربرية ووحشية ، وضربوا بمدافعهم مراكز التجارة الساحلية هناك ، كان ذلك نذيرا بأنهم فقدوا أول مصدر من مصادر الثروة التى أندفعوا من أجلها الى أفريقية ، وعندئذ فكروا فى أن يعوضوا هذه الخسارة بذهب الداخل ، ولكنهم فشلوا فى تحقيق ذلك أيضا ، ومن ثم لم يجدوا وسيلة لتحقيق الثروة التى جاءوا من أجلها الا أن يمارسوا تجارة العبيد التى وصمتهم بالخزى والعار (٦٢) ٠ وكانت هذه التجارة استنزافا لحيوية سكان أفريقية ، اذ اختلفت تماما عن مجرد اخضاع شعوب مغلوبة على أمرها ، حتى أنها كانت أسوأ تأثيرا من الموت الأسود الذى يقال أنه قضى على ثلث سكان أوربا فى العصور الوسطى (٦٣) ٠ وقد لجأ البرتغاليون فى سبيل الحصول على الرقيق الى وسائل شتى ، اتخذت صفة الحروب وما تبع ذلك من تخريب ، بل وصل الأمر بالبرتغاليين الى أنهم كانوا يستخدمون مجرميهم لتحريض السكان الأصليين لمحاربة بعضهم البعض ، وذلك لمصلحتهم فى سوق العبيد (٦٤) ٠ ومما يدعو للدهشة اعتقاد بعض الكتاب الأوربيين أن البرتغال قامت بعمل عظيم هو ممارستها تجارة الرقيق فى سواحل أفريقية ، ذلك أن القسس كانوا يعمدون كل رجل وامرأة وطفل قبل وضعه فى الاغلال وقبل ركوب السفن ،

---

(٦١) Wilson, op. cit., p. 214.

(٦٢) باسيل دافيدسون : افريقية تكتشف من جديد ، ص ١٢٦ ٠

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٥٨ ٠

(٦٤) رولاند أوليفر ، جون ليج : تاريخ افريقيا ، ترجمة د٠ عقيلة محمد رمضان ، مراجعة أحمد صوار ، ص ٥٤ ــ ٥٥ ٠

حتى تجد أرواحهم الخلاص عند موتهم فى البحر ، وكسبت الكنيسة من وراء ذلك مبالغ طائلة ، (٦٥) لأنها كانت تتقاضى ضريبة تعميد على كل فرد ، مع اعفاء الاطفال الرضع من الضريبة !٠ومما يؤسف له أن الاوربيين لم يشعروا بوخز الضمير حول أخلاقية الاسترقاق ، اذ تقبل معظم علماء اللاهوت والشخصيات المسئولة الحجة التى ساقها تجار الرقيق ، بأن الافارقة أفضل حالا فى ظل الاشراف المسيحى منهم عند الوثنيين أو المسلمين من أصحاب الرقيق (٦٦) ٠ ووصل الأمر الى حد أن الكنيسة الأوربية اعتبرت تجارة الرقيق تجارة مشرفة ، فلم تعترض عليها ، بل برزتها بمقتضى نصوص من العهد القديم ، وبضرورة تنصير الوثنيين (٦٧) ٠

---

(٦٥) درك كارتن : افريقيا ٠ افريقيا قارة تقف على قدميها ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ، مراجعة حسن لطفى المنفلوطى ، ص ٢٤ ٠

(٦٦) دونالد ويدنر : تاريخ أفريقيا جنوبى الصحراء ، ترجمة على أحمد غترى ، د٠ شوقى عطا الله الجمل ، ص ٧٧ ٠

(٦٧) جوليان : تاريخ أفريقية ، ص ٩٩ ــ ١٠٠ ٠